تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

موكب الحرمان :

كان لقلبه فى محراب فنها صلوات ... وفى محراب فنها كم صلت قلوب ، ولكنى لا أعرف قلباً أطال السجود مثل قلبه ! كان يقدسها وهى ترسل النغم فينصت الوجود ، يوم كان فى أنغامها أنين وحنين ، وفى ألحانها تبريح وتسبيح ... وكانت حين تغنى له وتغنى نفسها فى غنائها ، أشبه براهبة متعبدة ، تندت من دموعها صفحات الكتاب المقدس ! وأقام لها فى معرض الفكر صوراً فاتنات ، وحشدلها الخيال يعدها بكل ما فى إبداعه من ألوان وظلال

كانت إنسانة ، وكانت فنانة ، وخيل إليه يوماً أنها سمت بفنها وإنسانيتها إلى الحد الذى تشعر عنده الكلمات بأنها فى حاجة إلى عون الوحى والإلهام ! ... وكانت قصة هواها أنشودة حلوة : مثلها لم يحظ فى الفن يوماً وتر ، ولم ينشد يوماً فى اليم ملاح ، كلا . ولم يسمع شراع ... وأسطورة عذبة : مثلها لم يخط فى الوهم يوماً خيال ، ولم يصدح فى البيد يوماً رعاة ، كلا . ولم يكتب يراع ! وكان معبد القديسة يملأ النفوس رهبة ورحمة وحناناً ... كان الترتيل يهز جوانبه بين حين وحين ، فتهتز المشاعر ، وتتماس الأنفاس ، وتهوّم الأرواح ... وكانت أغانيها نشوة الشعور فى موكب الأفراح ، وفرحة القلوب فى عرس الحياة !

وفى ومضة البرق لفها الليـل ، فقد كل شىء ... معبد القديسة ؟ لقد خيم فى جنباته الصمت وشاع السكون ! معرض فكره وصوره الفاتنات ؟ لقد محت ريشة القدر كل ما فيها من ألوان وظلال ! ... وها هوذا النبع قد جف ، والزهر قد ذبل ، والعطر قد ذهب إلى غير معاد ! لقد لقيت مصرعها فى حادث لا يزال يذكره الناس ، وذهبت بأحلامها وأحلامه إلى هناك ، إلى وادى العدم ... والنيل الحبيب الذى بارك أمسياتهما لا يزال يجرى ، والقمر الساحر الذى رعى حبهما لا يزال يبزغ ، والليل الساكن الذى كتم سرهما لا يزال يقبل كلما ولى نهار !

أما هو ، فيا سوء ما فعلت به بعدها الأيام ! لقد طوى القلب على أحلامه ، وعاش من بعده على أطلال الذكريات ... ولقد سار وحده فى موكب الحرمان : يهتف للأنة الحائرة ، ويصفق للزفرة المحرقة ، ويعود آخر الأمر وملء نفسه أشلاء آمال ! ... وأما حياته ، فيا سوء ما أصبحت : لقد أصبحت أنغاماً من وهج اللوعة ، وفنوناً من عبقرية الألم ، وخريفاً لا يعرف طعم الربيع إلا من أفواه الناس !

كتبت هذه الكلمة منذ عام فى مجلة « الأديب » اللبنانية ، ثم تلقيت عقب نشرها بضع رسائل من هنا وهناك ، بعضها يدور حول كلمتين : « من هو ؟ » و « من هى ؟ » ... بينما يدور بعضها الآخر حول التوكيد بأن بطلة هذه القصة القصيرة هى فقيدة الفن « أسمهان » ، ولكن من هو بطل القصة ؟ ! ...

وأنا اليوم أعيد نشر هذه الكلمة تعقيباً على ما يكتبه الأستاذ التابعى عن ذكرياته حول هذه الفنانة فى « آخر ساعة » ، ولأقول لمن كتبوا إلى مستفسرين أن « هى » التى أشرت إليها لم تكن إلا المطربة « أسمهان » ... أما « هو » ، فليس واحداً من أولئك الذين عرف الناس قصة سلامهم بها ، ولا أعتقد أن واحداً منهم يعلم شيئاً عن هذا الغرام الصامت الذى جمع بين قلبها وقلبه ، وغلف قصة القلبين بغلاف من الصمت والكتمان !

وكم كنت أود أن أذيع قصتها على الناس من رسائلها إليه ، ذلك الإنسان الذى لا يعرفه أحد . ولكنه من أسرة ... وفى بيته زوجة وفية عزيزة عليه ، وأبناء صغار أحباء إلى قلبه !

إيمان عظيم :

قرأت لصديقى الأستاذ على أدهم كلمة قيمة فى « الثقافة » عن الألم والإيمان فى حياة الشاعر الألمانى هنريك هاينى ، وقد استوقفنى فيها ذلك الحوار الرائع بين هاينى الشاعر وإمانويل فخت الفيلسوف ، حول حقيقة الله بين الوجود والعدم ، أو بين الإثبات والإنكار ... قال هاينى لفخت[1] :

— « قل لى يا أستاذ بصراحة : هل تعتقد بالحياة الأخرى ؟ وهل تؤمن بأن الروح خالدة ؟ وأجاب فخت فى تؤدة ووقار :

— إنى أعتقد بوجود عالم الأفكار غير المنظور .

— ولكنك لا تصدق بوجود إله ... إله حى قيوم ؟

فأجاب الأستاذ فى غير تردد وقد هز رأسه : لا أصدق به !

فأرخى هاينى جفنه المشلول ، وارتمى على وسادته ، ولاذ بالصمت » ثم استأنف الصديقان حديثهما مرة أخرى حول وجود الله

(١) ما بين الأقواس للأستاذ على أدهم .

وكانت دهشة الفيلسوف بالغة حين رأى الشاعر وقد تحول من نزعة الإلحاد التي عصفت بعقيدته ردحاً من الزمن ، إلى نزعة إيمان عميق تغلغلت في خلجات روحه ، تحت وطأة مرض طويل ألزمه الفراش وبرح به آلامه ! وهنا قال هايني :

« إنني في حاجة إلى الله ، ففي الليل حينما تأوي زوجتي إلى فراشها أشعر بالوحدة ، وينفر مني النوم ، وأظل أتقلب في الفراش وأتحول من جنب إلى جنب ، ويمشي جسمي الألم ويدب به من الرأس إلى القدم ، وفي كل لحظة أعتقد أن نهايتي قد دنت وحانت منيتي ... وفي مثل تلك اللحظات يؤنس وحشتي أن أفكر في أن هناك في السموات — أو في أي مكان آخر — من أستطيع أن ألجأ إليه في كربتي وضائقتي ، ومن أتهمه وأدينه وألقي عليه التبعة ...» ولعل هذه الكلمات الأخيرة هي وحدها التي تركت أثرها العميق في نفسي وحسي . إن فيها دفقات هائلة من حرارة الشعور في القلب الإنساني ؛ الشعور الذي تنبلج أمامه أنوار الحقيقة والإيمان في لحظات الشدة والضيق وحيرة الرجاء ، هناك حيث يتجه الضعفاء بقلوبهم إلى رحاب الله ينشدون العون ، حين يعز النصير على أرض البشر ! إنها ليست كلمات ، بل أنات .. هتكت ستار الصبر والجلد ، وتركت مكانها من حنايا الضلوع وشغاف القلب ، وخرجت إلى الناس تروي لهم قصة الألم والإيمان !

« إنه هايني الإنسان ... هايني الذي هتف مرة في غمرة من غمرات عذابه : لن أنتسب بعد اليوم إلى الملحدين والجاحدين ، لقد أصبحت أومن بأن أوائل الأشياء وأواخرها هي في الله !

مع الدكتور طه حسين :

كنت أتحدث منذ شهرين مع الدكتور طه حسين بك عن الكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر ، وكان بدء الحديث سؤالاً مني للدكتور عما إذا كان قد التقى بسارتر في خلال تلك الفترة التي تغيب فيها عن مصر ليقضيها في فرنسا ، ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى شخصية سارتر الأدبية والفلسفية ، وإلى حقيقة المكان الذي يشغله في الأدب الفرنسي المعاصر .

وسارتر — كما لابد أن يعرف المتتبعون لأخباره من القراء — فيلسوف وجودي ملحد ، أصدر البابا أمراً بمنع دخول كتبه الفلسفية إلى مدينة الفاتيكان لما فيها من إنكار سافر لوجود الله ! وهو بعد ذلك أديب ارتقى سلم المجد الأدبي في وثبة واحدة بدلا من ارتقائه في وثبات ؛ ومن العجيب أنه إلى ما قبيل الحرب العالمية الثانية لم يكن شيئاً مذكوراً يلفت النظر ويثير الاهتمام ، ولكنه الآن يحتل مكانه في الطليعة من كتاب فرنسا الأحياء ، ويكاد مجده الأدبي يغطي على أعلامهم جميعاً عن جدارة واستحقاق !

أما شخصيته الأدبية ، فتتمثل في تعدد ملكاته ومواهبه — إنه كاتب تراجم قد لا يلحق به ، وكتابه الذي أخرجه عن « بودلير » يعد في رأي النقد خير كتاب أخرج في موضوعه ، منذ أن احتل أدب التراجم مكانه إلى جانب الفنون الأدبية الأخرى . وله في ميدان النقد الأدبي نظرية جديدة لا أحسب أن أحداً قد سبقه إليها ؛ وهي نظرية تنادي بأن الأدب صورة القارئ لا صورة البيئة كما يقول « تين » ... وهو بعد ذلك كاتب مسرحي يغذي المسرح الفرنسي من وقت إلى آخر بإنتاجه الفريد المتميز !

في هذه الأشياء كلها كنت أتحدث مع الدكتور طه حسين ، ولقد قال الدكتور فيما قال : إنه يخشى على مجد سارتر الأدبي بسبب ميله إلى السهولة فيما يكتب في هذه الأيام ، وإنه لم يرض عن مسرحيته الأخيرة « الأيدي القذرة » يوم أن شاهدها تمثل في أحد المسارح الباريسية .

وأعقب على هذه اللفتة فأتساءل : ترى لو نظرنا إلى مجد سارتر الأدبي هذه النظرة بسبب ميله اليوم إلى السهولة فيما يكتب فكيف تكون نظرتنا إلى هؤلاء الذين يكتبون اليوم في مصر ، ولا يهمهم ملء الفراغ الروحي الذي تحسه الجماهير بقدر ما يهمهم ملء الفراغ الذي تحسه أعمدة الصحف والمجلات ؟ !... إن أخطر الخطر على الكاتب أن يظن أنه قد بلغ أوج الشهرة وقمة المجد ، وألا ضير عليه من الوقوف على السطوح دون التغلغل إلى الأعماق ، وهذا هو ما يلقاه المتعطشون إلى المعرفة في هذه الأيام حين يقرأون لبعض كبار الكتاب فلا يخرجون بشيء !

إن المسألة عند سارتر ضرب من الميل إلى السهولة ، ولكنها عندنا ضرب من الاستهانة بالقيم والأذواق !

حديث الدكتور طه حسين بك في (بيروت المساء) :

في مكان آخر من « الرسالة » تقرأ الكلمة التي بعث بها إلينا الدكتور طه حسين بك ، والتي نفى فيها ذلك الحديث الذي نسبته إليه جريدة « بيروت المساء » اللبنانية حول الشاعرين : علي محمود طه ، وعمر أبو ريشه ؛ ويسرني كما يسر الذين ينشدون حقائق الأمور أن يبادر الدكتور الفاضل بتكذيب ما نشر منسوباً إليه ، وأن يكون رأيه في الشاعر المصري منذ أيام هو رأيه فيه منذ سنين ، دون أن يغض من قيمة هذا الرأي أخطاء نحوية أو

لغوية يقع فيها الشاعر ، وما أكثر ما يخطئ الشعراء والكتاب المعاصرون في العربية كما يقول الدكتور طه حسين !

أما حديث الدكتور عن الشاعر على طه في الجزء الثالث من « حديث الأربعاء » ، فقد اطلعت عليه منذ أمد بعيد ، وما زلت أذكر كل ناحية من نواحيه في مجال الإشادة بحسنات الشاعر والإشارة إلى سيئاته ، ولعل ما كتبه الدكتور في « حديث الأربعاء » هو الذي أثار دهشتي عند ما وقعت على حديثه الذي نسبته إليه الصحيفة اللبنانية ، لأن الفارق بين رأيه اليوم في الشاعر ورأيه بالأمس فارق بعيد !

وإذا كان أديبنا الكبير قد بادر فذكر في كلمته أن شيئاً مما نسب إليه لم يحدث أن أفضى به إلى « بيروت المساء » ، فإني أبادر بتوجيه الشكر إليه خالصاً من الأعماق ، وأشكره مرة أخرى على هذه التحية الكريمة التي تفضل فخصني بها في ثنايا كلمته ؛ أما دفاعي عن الشاعر على طه ، فهو دفاع عما أعتقد أنه الحق ... وليتني الدكتور طه أن له في نفسي مكاناً يستحقه رجل له في حساب الشعور أكرم الذكريات ...

عبقرية محمد الإنسانية :

تحت هذا العنوان كتبت في عدد « الرسالة الهجري » مقالا خالفت فيه الأستاذ العقاد في طبيعة نظرته إلى شخصية محمد الإنسانية ؛ وأعتقد أنني أوضحت جوهر الخلاف إيضاحاً لا يحتاج مني إلى أكثر مما أوردت من تفصيل ، كما لا يحتاج من غيري إلى تعقيب ... ولكن الأستاذ محمد محمود حماد يعقب على ما كتبت في عدد « الرسالة » الماضي بكلمة عجيبة تبعد كل البعد عن الأفق الذي أدرت فيه حديثي عن محمد الإنسان !

إن جوهر الخلاف بيني وبين الأستاذ العقاد هو أنه يزن إنسانية محمد بميزان العظمة النفسية ، بينما أزنها أنا بميزان اللحظة النادرة من لحظات « الضعف الإنساني » ... فموقف الرسول من عبد الله بن أبي ، أو من هبار بن الأسود ، هذا الموقف الذي يعز مثيله على الأقران والنظراء ، ينظر إليه العقاد من زاوية تنطبق — كما قلت — على الرجل العظيم ، لا على الإنسان العظيم ، لأن محمداً في أمثال هذه المواقف — كما يرى العقاد — أكبر من أن يلقى الأمور لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة !

هل كان الرسول حين شمل عبد الله بن أبي بالصفح والرحمة والمغفرة ، ينظر إليه على أنه أهون من أن يعامله معاملة الند للند ، أو معاملة النظير للنظير ؟ إن هذا المنظار الذي ينظر العقاد من خلاله إلى معدن النفوس وجوهر القلوب ، يجعل من الرحمة المحمدية ضرباً من التعاظم والكبرياء ، وهذا ما ننزه عنه كمال الإنسانية في هذا الإنسان العظيم !

أما تعليق على قول الأستاذ العقاد بأن النبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى ، بل لا بد أن يكون إنساناً عظيماً ، فلم أقصد من ورائه إلى أن العقاد قد نفى الإنسانية عن محمد قبل أن يكون نبياً كما فهم الأستاذ حماد ... وإنما قصدت إلى أن اشتراط الإنسانية لنبوة محمد أمر لا داعي لإثباته ، لأن محمداً كان إنساناً يأدق معاني الكلمة قبل أن يبعث رسولاً إلى الناس ! ولم يحدث أنني قصرت إنسانية محمد على الرحمة كما يغالط الأستاذ حماد ، ولكنني قصرتها على لحظات « الضعف الإنساني » ... وتحت هذه اللحظات يمكن أن تندرج الرحمة وما يماثلها من شتى الفضائل والصفات .

وإذن ، فلا مبرر لقوله بأن حديث العقاد عن إنسانية محمد كان أشمل وأعم !

تحية الأديب للرسالة :

كتبت مجلة « الأديب » اللبنانية في عددها الأخير مايلي :

« لاحظنا كما لاحظ معنا كثيرون — والملاحظة تؤلم — غيبة مجلة « الرسالة » عن معرض الكتاب في مدينة اليونسكو في الوقت الذي رأينا فيه عشرات المجلات التي لا ترتفع إلى مكانة « الرسالة » فكراً وقدراً تحتل صدر الجناح المصري ، عرضة لأنظار مفكري العالم ! ... حرام أن يضغط حق مجلة قادت ولا تزال تقود الرأي والفكر في العالم العربي ست عشرة سنة ؛ بينما يفسح لغيرها ممن لا يعرف لها في التوجيه أو الأدب أو العلم أي سبيل يذكر ! نحن نفهم أن يمنع عرض مجلة « الأديب » في الجناح اللبناني — بينما تعرض بعض الوريقات الصفراء — لأن الأديب كانت وما تزال تقاوم في هذا البلد رسالتها التوجيهية السامية ، وقد عرف هذا البلد « السيد » بأنه مقبرة لأبنائه المخلصين النابهين ... ولكن أن يهمل عرض « الرسالة » في الجناح المصري ، فهذا موضع دهشتنا ! »

هذه اللفتة الكريمة من الزميلة اللبنانية ، وهذه التحية الصادقة ، تستحقان من أسرة « الرسالة » كل ثناء وتقدير . أما التعقيب على هذا الأمر الذي يثير الدهشة والعجب ، فسنفرد له مكاناً خاصاً في العدد المقبل إن شاء الله !

أنور المعداوي